شعراء الوطنية

عبد الله نديم

للأستاذ المؤرخ عبد الرحمن الرافعي

تحدثنا فى مقالنا السابق عن رائد أول للشعر الوطنى ، وهو رفاعة رافع الطهطاوى . وقد توفى سنة ١٨٧٣ . وظل الشعر فى مصر خلوا من المعانى الوطنية ، إلى أن تجددت فى شعر عبد الله نديم . وهو ما نتحدث عنه فى هذا المقال

هو خطيب الثورة العرابية ، وهو أيضا شاعرها ، انطبعت فى خطبه وقصائده روح الوطنية المتدفقة . وروح الثورة

ولد سنة ١٨٤٥ بالاسكندرية ، وبدت عليه منذ صباه مخايل الذكاء اللامع ، وظهرت مواهبه فى الترسل فى الكتابة والشعر والزجل والقدرة الخطابية ، مع خفة فى الروح ، وميل إلى الفكاهة . وجرأة وإقدام ، واستخفاف بأحداث الزمن

ولما ظهرت الثورة العرابية أوائل سنة ١٨٨١ انضم إليها بطبعه ؛ إذ كانت نفسه تتأجج وطنية ، وتتطلع إلى الحرية والمجد . وتجلت مواهبه الخطابية ، فصار خطيب الثورة العرابية

ومما يذكر عنه فى صدد الحديث عن شعره الوطنى أنه لما سافر الألاى السودانى الذى كان يقوده الأمير الاى عبد العال حلمى أحد زعماء الثورة من القاهرة إلى دمياط فى أوائل أكتوبر سنة ١٨٨١ ، كان سفره يوما مشهودا . فاحتشدت الجموع فى محطة العاصمة لتحية الألاى حين سفره ، وكان من بين المودعين عرابى والبارودى وعبد الله نديم ، فوقف النديم وسط هذا الجمع الحاشد وألقى خطبة حماسية فياضة بدأها بقوله مخاطبا رجال الجيش :

« حماة البلاد وفرسانها !

« من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات

إلى أن قال : وهذا وطنكم العزيز أصبح ينادبكم ويناجيكم ويقول :

إليكم يرد الأمر وهو عظيم ... فانى بكم طول الزمان رحيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللردى ... فمن أين يأتى للديار نعيم ؟
وإن الفتى إن لم ينازل زمانه ... تأخر عنه صاحب وحميم
فردوا عنان الخيل نحو مخيم ... تقلبه بين البيوت نسيم

وشدوا له الأطراف من كل وجهة

فشدود أطراف الجهات قويم
إذا لم تكن سيفا فكن أرض وطأة
فليس لمغلول اليدين حريم

وختم خطبته بقوله : وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادية عند النوازل أن يقال (مات شهيد الأوطان !) فنادى الجميع (رضينا بالموت فى حفظ الأوطان !)

ولما شبت الحرب العرابية لازم النديم عرابى فى كفر الدوار ثم فى التل الكبير ، وكانت محلته (الطائف) تصدر فى معسكر الجيش المصرى

وبعد أن وقعت الهزيمة ظل مخلصا للثورة فى محنتها . فبرهن على وفاء نادر ووطنية أصيلة عميقة . وكان ممن أمرت الحكومة باعتقالهم ، وعجزت عن التعرف إلى مقره والقبض عليه ، وظل مختفيا عن عيونها وجواسيسها نحو تسعة أعوام . وأعيا الحكومة أمره وجعلت ألف جنيه لمن يرشد عنه ولكنها لم تهتد إليه

وقد وصف ما لقيه من الشدائد أثناء اختفائه فى قصيدة تفيض وطنية وإيمانا وفخرا وشجاعة . وهى من غرر قصائده . قال :

أعمسنا إذا ظلنا بلينا ... بلينا أو يروم القلب لينا
نعم للمجد نقتحم الدواهي ... فيحسب حامل انا دهينا
تناوشنا فتقهرنا خطوب ... ترى ليث العرين لها قرينا
سواء حربها والسلم إنا ... أناس قبل هدتها هدينا

إلى إن قال :

إذا ما الدهر صافانا مرسنا ... فإن عدنا إلى خطب شفينا
لنا جلد على جلد يقينا ... فإن زاد البلا زدنا يقينا
ألفنا كل مكروه تفدى ... له فرسانه بالراجلينا
فأعيا الخطب ما يلقاه منا ... ولكنا سحاح ما عيينا
سلينا يا خطوب فقد عرفنا ... بأنا الصلب صلنا أو صلينا
وقرى فوق عاتقنا وقولى : ... نزلت اليوم أعلى طورسينا
علينا للملا دين وضعنا ... عليه الروح لا الدنيا رهينا
فهل يمسى رهين فى سرور ... وهل تلقى بلا كدر مدينا
إذا ما المجد نادانا أجبنا ... فيظهر حين ينظرنا حنينا
يغذينا فيلهينا التغنى ... عن الباكى وينسينا الحزينا
ولسنا الساخطين إذا رزئنا ... نعم يلقى القضا قلبا رزينا
فإنا فى عداد الناس قوم ... بما يرضى الآله لنا رضينا
إذا طاش الزمان بنا حلمنا ... ولكنا نهينا أن نهينا

إلى أن قال :

سلوا عنا (منازلنا) فإنا ... تركنا فى منصتها فطينا
لحكمتنا تقول إذا هذرتم ... ألا هبى بصفحك فاصبحينا
سرى فينا من الآباء سر ... يسوق البر نحو المعوزينا
فإن عشنا منحنا سائلينا ... وإن متنا نفحنا الزائرينا

وقال يصف إحاطة الجند بالنزل الذى كان فيه يريدون اعتقاله فنجاه الله من شرهم :

أأنسى يوم مصر والبلايا ... تطاردنى ولا ألقى معينا
فكنت[1] الموت فى يوم كريه ... أخاف الشهم والحبر السمينا
مدحنا فيه فى إشراق شمس ... فلما جاء مغربه هجينا !
وهل أنسى هجوم الجند عمراً ... بلا علم وقد كنا لجينا
أحاطوا بى وسدوا كل باب ... وصرنا بين أيدى الباحثينا
وكان السطح مملوءا بجند ... وخلف البيت كم وضعوا كمينا
فأدركت الوحيد وكان صيدا ... قريبا من فخاخ الطالبينا
وأرشدت النديم إلى مكان ... رآه بعد حيرته مكينا
وأعمى الله عنا كل عين ... وكنا للعساكر ناظرينا
وصرنا فوق سطح فيه علو ... يحطم هاويا منه منينا
فلم أرهب وثوبى من طمار ... ولم أنظر شمالا أو يمينا
ويوم الغيظ كنت لنا بحيرا ... بسطوته من البلوى حمينا
فقد كنا بلا ستر يرانا ... أمام العين كل القاصدينا
وكم سرنا بلا خوف جهارا ... ركبنا الخيل أو جئنا السفينا
وإنى الآن فى خطب عظيم ... أرى فى طيه داء دفينا
أتانا مخبر عن قوم سوء ... أرادوا وصفنا للحا كمينا
وخاف الضر أحبابى جميعا ... وقالوا بالوشاية قد رمينا
فعجل بالرحيل بلا توان ... ولا تخبر صديقا أو خدينا
فأدركه يا أبى نجلا دهاه ... من الأهوال ما يوهى البدينا
فما خفت المنون ولا الأعادى ... نعم خفت انشراح الشامتينا
فسرت الليل يصحبنى ثبات ... نخل نحو منزله دعينا
ورافقنى خليل كان قبلا ... يوافى حين كنا ظاهرينا
وأدركنا القطار بغير خوف ... وكنا بالثياب منكرينا
وألقى الله ستر الحفظ فضلا ... فلم ترنا عيون المبلسينا
وكان النخل منتظرا قدومى ... بخيل أوصلتنا سالمينا
ونجى الله بعد اليأس عبدا ... يرى الرحمن خير المنقذينا

وإنك لترى هذا الشعر أقوى فى الروح والأسلوب من شعره فى إبان الثورة . وهكذا يبدو أن الهزيمة لم تنل منه . بل زادته قوة وحيوية وصلابة وبلاغة . وأن الشدائد قد صقلت مواهبه كما تصقل المعادن وتجلى جواهرها على لهب النار . فاحتفظ النديم فى سنى المحنة بما حباه الله من إيمان صادق . وعزم ثابت . وصمود على الأيام . وكذلك الشدائد والمحن . تختلف أثرها فى نفوس الناس . فبينما تبعث اليأس والجزع فى النفوس الضعيفة . نراها على العكس

(١) الخطاب هنا وفى الأبيات التالية موجه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام . والنديم شريف النسب